تاريخ العثمانيين المزيَّف
تمت صياغته بأقلام "عربية" مؤدلجة

هناك ظاهـرة مهمة وخطيرة في الأدبيات التاريخية العربية، وهـي التضخيم من الدور الذي لعبته الدولة العثمانية في التاريخ العالمي بشكلٍ عـام، والتاريخ العربـي على وجـه الخصوص، بل ويصل الأمر إلى ذروته في بعض الأحيان لمحاولة صناعـة تاريخ مقـدس للخلافـة العثمانية، على أسـاس أنها آخر مراحل الخلافـة الإسلامية، وأن الغرب الصليبي هو الذي حرص على إسـقاط هذه الخلافة، حتى يستطيع التهام العالم العربي، وفي القلب منه فلسطين من أجل إقامة إسرائيل.

> **محمد فريد والشناوي أسسا لأدبيات تاريخية مشوهة**

في الحقيقة تجد هذه الظاهرة مجالًا للنشـاط والانتشـار في لحظات الضعف التي تمر بها المنطقة العربية عبـر التاريخ، كما تُوظَّف جيدًا لصالح تيارات الإسلام السياسـي، خاصةً في لحظات صراعها مع الأنظمة السياسية في العالم العربي.

وربما نجد أصل هذه الظاهرة في فترة نهاية القرن التاسـع عشر وبداية العشرين، وهي فترة ضعف الدولة العثمانية أصلًا، ونجاح الاسـتعمار الأوروبي في التهام بعض الولايات العربية. وبالقطع لن نستطيع في مثل هذا المقال تناول كل هذه الكتابات وتتبع ميراث هذه الظاهرة في مختلف البلاد العربية؛ نظرًا لكبر حجمها، وتعدد الكتب التي صدرت في خدمة هذا الاتجاه، وأيضًا طول الفترة الزمنية؛ إذ نجد لهذه الظاهرة امتدادات حتى في القرن الواحد والعشـرين. من هنا سنقصر معالجتنا في هذا المقال على تتبع الأدبيات التاريخية لهذه الظاهرة في مصر.

من الكتب الأساسية والمؤسسة لهذه الظاهرة الكتاب الذي أصدره السياسي المصري الشهير محمد فريد في مطلع القرن العشـرين، وهو كتاب "تاريخ الدولة العليـة العثمانية"، وتعود الخلفية التاريخيـة لهذا الكتاب إلى فترة ضعف الدولة العثمانية، وعجزهـا حتى عن حماية أهم ولاياتها، وهي مصـر التي سـقطت في يد الاحـتلال الإنجليزي منذ عـام (1882). كما يصاحب صـدور الكتاب تبني السلطان عبد الحميد الثاني لمشروع "الجامعة الإسلامية"، والمقصود بها تجمع كل مسلمي العالم تحت لواء الدولة العثمانية، وسـلطانها عبد الحميد الثاني. كما يصاحـب صدور الكتاب فترة تحالف الخديو عباس حلمي الثاني - خديو مصر آنذاك- مع السـلطان عبد الحميـد الثاني ثكأةً في الاحتلال الإنجليزي. وفي تلك الفترة تشـهد السياسة الإسلامية للحزب الوطني في مصر، ودعايته لعودة مصر للدولة العثمانية كوسيلة لمقاومة الاحتلال الإنجليزي.

كانت هذه هي الخلفية التاريخية وراء صدور كتاب محمد فريد "تاريخ الدولة العلية" أي: الدولة العثمانية. وفي حقيقة الأمر لم يكن هذا الكتاب عملًا علميًّا تاريخيًّا بقدر ما كان جزءًا من حملة الدعاية لمشـروع عبد الحميد الثاني في محاولة تكريس مفهوم الخلافة للدولـة العثمانية، وجعلها جامعةً تجمع كل المسلمين، وليس فقط رعايا الدولة العثمانية. ويتضح ذلك جليًّا من مقدمة الكتاب نفسه؛ إذ يُهدي محمد فريد كتابه إلى السـلطان بقوله: "وقـد قصدت بهذه الخدمة -إصدار الكتاب- أن أقوم بفرض يجب على كل إنسـان أداؤه لعرش الخلافة العظمى وملجأ الإسلام في هذا الزمن؛ مولانا أمير المؤمنين السـلطان الغازي عبد الحميد الثاني، أمد الله فـي عمره وأيده بنصره". هكذا يتبين لنا منذ بداية مطالعتنا للكتاب مدى الانحياز وغلبة العامل الأيديولوجي وراء هذا الكتاب.

ثم يبدأ محمد فريد تاريخـه للدولة العثمانية على أنها امتـداد لتاريخ الخلافة الإسلامية منذ عصر الخلفاء الراشدين، ويرى أن الخلافة في الإسلام فرعان: فرع الخلافة العربية، ثم مع صعود الدولة العثمانية يأتي "فرع الخلافـة التركية". وهنا يتجاهل محمد فريد التاريخ الطويل لمسـيرة الخلافة، ويتجاهل القواعد الفقهية التي سارت عليها الخلافة، وقصرها على العنصر العربي ومبدأها بالشورى، فأي مسوّغ فكري وفقهي يسمح بتجاوز هذه القاعدة، وأن تؤول الخلافة لآل عثمان؟!

أسـس محمد فريد فـي كتابه لصناعة تاريخ مقـدس للدولة العثمانيـة، وأن هؤلاء هم من أرسلهم الله سـبحانه وتعالى لإنقاذ الأمة الإسلامية بعد حالة الضعف التي دخلت فيها: "لكن العناية الصمدانية تداركتهم بلمّ الشـعث ورفْ الرث ورتق الفتق ورفع الخرق، فأضاءت الآفق الإسلامي بظهور النـور العثماني، وأمدتـه بالنصر اللدني، والعـون الرباني، فقامت الدولة العليـة بحياطة هذا الدين، وحماية الشرقيين، ودعت إلى الخير، وأمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، فكانت من المفلحين".

هكذا أسس محمد فريد لمدرسـة أتت من بعده، مدرسة تنتشر للأسف في الكثير من البلدان العربية، وتظهر بشـكل واضح في أوقـات ضعف المنطقـة العربية والإسلامية، تنظـر إلى الدولة العثمانية على أنها الفردوس المفقود الذي ينبغي عودته من جديد، لاستعادة مجد الإسلام.

ولقـد عمل أنصـار التيار القومي المصـري على الوقوف أمـام كتابة تاريخ مقـدس للدولة العثمانيـة، بل نظروا إلى تأثير الفترة العثمانية التي عاشـتها مصر على أنها فترة مظلمة. ومن أهم هذه الكتابات كتاب حسين فوزي "سندباد مصري"، وهو رحلة في تاريخ مصر، والأمر الجدير بالملاحظة هنـا أن فوزي بدأ كتابه بما أطلق عليه "الجمعة الحزينة"، والمقصود بها يوم الجمعة التي قُرِئت فيه خطبة الجمعة وتم فيها الدعاء للسـلطان سليم الأول بعد غزوه القاهرة في عام (1517). ويرى حسين فوزي أن هذا اليوم هو أسـوأ يوم في تاريخ مصر؛ لأن مصر فقدت هيبتها واستقلالها، وأصبحت مجرد ولاية عثمانية، حيث دخلت في عصور الظلام.

لكن الأمور سرعان ما تتبدل وتعود ظاهرة صناعة التاريخ المقدس للدولة العثمانية مرة أخرى، وأتى ذلك مصاحبًا لفترة من أشـد فترات الضعف والانكسار التي شـهدتها مصر والمنطقة العربية، وأقصـد بذلك فتـرة هزيمة 5 يونيـو (1967)؛ إذ لم تنحسر آثـار هذه الهزيمة المروعـة على الجانب العسـكري فحسـب، بل امتدت لتشـمل حالة عامة من فقدان الثقة في فكرة القومية العربية التي سادت المرحلة السابقة على الحرب، وعاد التيار الإسلامي ليطل برأسه من جديد تحت ادعاء أن العرب هُزِموا لأنهم ابتعدوا عن دينهم، بينما انتصر "اليهود" لأنهم يحاربون بعقيدة دينية، وبالقطع كان ذلك اسـتخفافًا بالأسـباب الحقيقية وراء هزيمة يونيو 67، ودعاية دينية واضحة سـاعدت على عودة تيار الإسلام السياسي من جديد.

فـي ظل هذه الأجواء خرج علينا كتاب جديد، يرتبط بصلة رحم أيديولوجي مع كتاب محمد فريد السابق الإشـارة إليه؛ إذ أصدر عبد العزيز الشـناوي كتابه الشـهير "الدولة العثمانية: دولة إسلامية مُفتـرًى عليها". ومـن البداية ومنذ عنوان الكتاب يحدد الشـناوي موقعه وهدفه مـن قراءة التاريخ العثماني كتاريخ "دولة إسلامية مُفتَرًى عليها". ويرفض الشـناوي كتابـات المؤرخين الأوروبيين عن الدولة العثمانية، ويرى أن هذه الكتابات صورت السـلطان العثماني على أنه: "السـلطان المسـلم الجاهل المتبرير المسـتغرق في ملذاته مع حوياته الفاتنات"، ويرى أن "وصف الدولة العثمانية بأنها دولة إسلامية مُفتَرًى عليها هو أصدق قيلًا من أي وصف آخر".

ولا يكتفي الشـناوي في دفاعه عن الدولة العثمانية بالاشتباك مع المستشرقين فحسب، بل يشتبك أيضًا مع التيار القومي العربي الذي أخذ موقفًا حادًّا من تاريخ الدولة العثمانية؛ إذ يرى الشناوي أنـه: "قد ردد بعـض المؤرخين والباحثيـن العرب عن جهالـة أو تجاهل أو حقد تلـك الآراء الخاطئة والظالمة معًا في مؤلفاتهم".

هكذا يأتي كتاب الشـناوي إعادة قراءة لتاريخ الدولـة العثمانية في ضوء التطورات وحركة مد التيار السياسي الإسلامي التي شـهدتها مصر والمنطقة العربية بعد هزيمة يونيو 67. وكانت صناعة تاريخ مقدس للدولة العثمانية هي بمثابة اختراع أندلس جديدة "الفردوس المفقود".

المراجع:

1) حسـين فوزي، سـندباد مصري: جولات في رحـاب التاريـخ، ط3 (القاهرة: دار المعارف، د.ت).

2) عبد العزيز الشـناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مُفتَرًى عليها، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1980).

3) محمـد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانيـة، ط2 (القاهرة: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1896).

4) محمد عفيفي، "حدود الدين وحدود الدولة: قراءة في تطور مفهوم الدارين بين الخلافة والسلطنة العثمانية"، مجلة التفاهم، مسقط (2011).

5) محمد عفيفي، عرب وعثمانيون: رؤى مغايرة، ط.2 (القاهرة: دار الشروق، 2008).